٥ — عدد ١٩ أبريل ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة ادبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	رفيق	٤١٣
محمود عزمى	صفحة دبلوماسية خلال قراءات	٤٢٤
محمود تيمور	كيف تلهو نيويورك	٤٢٩
سليمان حزين	بين العلم والسياسة	٤٣٥
حسين فوزى	هواة الموسيقى الغربية	٤٤٦
محمد عبد الله عنان ...	حماية حقوق التأليف	٤٥٩
سهير القلماوى	وقفة خالدة	٤٦٦
محمد مفيد الشوباشى...	جيوش كسرى أنوشروان (قصة).....	٤٧٤
ألكسندر كواريه ..	كوندرسيه	٤٩٠
محمد عبده عزام	نوبان أسودان.....	٥٠٢
ريمون فرنسيس	الهجاء السياسى فى مسرحيات أريسطوفان	٥٠٦
هنرى بيرلين.....	الحياة فى بلد محايد.....	٥١٥
أحمد الصافى النجفى...	مقطوعات من الشعر	٥٢٠
عبد العزيز أحمد	المرأة فى الأندلس	٥٢٢
راجية فهمى	ليلة العيد (قصة).....	٥٣٢
لميعة عباس عمارة ...	فى رثاء الأستاذ طه الراوى (قصيدة).	٥٣٩

شهرية الفن — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح — شهرية السينما
من هنا وهناك — من وراء البحار — من كتب الشرق والغرب
ظهر حديثاً — فى مجلات الشرق — فى مجلات الغرب

تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

الكاتب المصرى

جمادى الأولى ١٣٦٦ — ابريـل ١٩٤٧

السنـــة الثانيـــة — مجلد ٥ — عدد ١٩

رفيـــــق

١

كان ذلك فى ساعة من ساعات الضحى ، حين كان النهار يحب أن يبطئ فى سعيه ، ليحبس الصبية والشباب من أهل الكتّاب ، ويمسكهم فى حياتهم تلك التى كانت تخضعهم لعنف سيدنا ومكر العريف ، ويؤخر عنهم هذه اللحظة السعيدة التى يؤذن لهم فيها بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، والتى كانوا ينتظرونها متشوفين إليها ، لا ليرضوا حاجتهم إلى الطعام ، بل ليرضوا حاجتهم إلى الحرية واللعب . وكان الصبية والشباب من أهل الكتّاب يستبطئون ارتفاع الضحى وزوال الشمس ، ويخدعون أنفسهم عن هذا الانتظار الشاق البغيض ، بنشاط غريب مفاجئ ، ترتفع فيه الأصوات بالقراءة وتكثر فيه حركة الأيدى التى تمسح الألواح لتزيل منها ما حفظ أمس ، وتكتب فيها ما سيحفظ بعد الغداء . وكان الكتّاب فى ذلك الوقت أشبه شئ بخلية النحل ، كله حركة ، وكله نشاط ، وكله دوى يرتفع حتى يسمع من بعيد جدًّا ، على ما فيه من تباين الأصوات واختلافها ، بين أصوات الصبية النحيلة الضئيلة العالية التى لم تثبت بعد ، وأصوات الصبية التى أخذت تمتلئ لأن أصحابها قد تقدمت بهم السن شيئاً ، وأصوات الشباب التى كادت تشبه أصوات الرجال وكادت تستوفى حظها من الامتلاء . وكانت هذه الأصوات المختلفة المنطلقة فى وقت واحد ، تحمل إلى الآذان شيئاً حلواً رائقاً ، فيه كثير من الملاءمة والانسجام ، يشبه ما تحمله إلى الأذن الأدوات الكبيرة للموسيقى حين يشتد اختلافها فى طبيعة الجرس ،

وينشأ عن ائتلاف مختلفها جمال يسحر السمع ، و يملأ النفس روعة وطرباً .

فى هذه الساعة من ساعات الضحى ، وفى ساعة أخرى من ساعات النهار ، حين كان المؤذن يوشك أن يدعو إلى صلاة العصر ، كانت حماسة الصبية والشباب من أهل الكتاب تبلغ أقصاها . ولم يكن من اليسير أن يظفر سيدنا أو العريف بردهم إلى السكوت ، دون أن يصفق تصفيقاً قويا ، و يخرج من حلقه صوتاً كأنه الرعد يقرع الآذان ويفجأ النفوس، فيعقد الألسنة عن النطق، ويكف الأيدى عن الحركة ، ويعلق التلاميذ فى صمت أبله ، وسكون أحمق ، ووجوم غريب .

فى ساعة من تلك الساعات ، وقف على عتبة الكتّاب بين شقى الباب رجل قد تجاوز الشباب ، ولكنه لم يمعن فى الشيخوخة ، وعليه مظهر الثروة وارتفاع المنزلة ، يعرف ذلك من لباسه الأنيق ، ووجهه الذى تشرق فيه الثقة وتظهر عليه الكبرياء . وكان الرجل مرتفع القامة مهيب الطلعة ظاهر النعمة ، يدل منظره على أنه راض عن نفسه كل الرضى ، مستقر فى الحياة كل الاستقرار ، لا يخاف شيئاً ، ولا يشك فى شئ ، ولا يعرف التردد ولا الاضطراب . وأكبر الظن أنه كان ضابطاً من ضباط الجيش وقتاً ما ، ثم تحول عن الحياة العسكرية إلى الحياة المدنية ، فانتقل إلى هذه الحياة الجديدة محتفظاً بعاداته وتقاليده العسكرية كلها أو أكثرها . وأكبر الظن أنه لم يكن مصرى الأصل ، و إنما كان تركيًّا تمصر هو أو تمصرت أسرته ؛ فقد كان يحمل فى وجهه وفى شكله كله شيئاً لا أدرى ما هو ، ولكنه يبين أنه ليس من المصريين ، ويباعد بينه وبين المصريين مباعدة ما ، ويثير فى نفوس المصريين إذا رأوه من قريب شيئاً غريباً فيه إكبار له ، وفيه استخفاف به .

وكان هذا الرجل حين وصل إلى الكتّاب ، قد أعطى كلتا يديه لصبيين يكتنفانه ويسعيان معه سعياً رفيقاً . فأما أحدهما عن يمينه ، فقد كانت على وجهه سحابة رقيقة من حزن . وأما ثانيهما عن شماله ، فقد كان باسم الثغر مشرق الوجه يكاد يخرج من جسمه قوة ونشاطاً . فلما بلغ باب الكتّاب ومن حوله هذان الصبيان ألقى تحيته ، فسمع أهل الكتاب صوتاً لم يسمعوا مثله قط فى قريتهم ، صوتاً ضخما عريضاً ممتلئاً ، أغنى سيدنا وأغنى العريف عن التصفيق والزئير ؛ فقد قرع آذان التلاميذ ، وفجأ نفوسهم ، وعلقهم فى هذا السكوت

الأبله ، وفى هذا السكون الغريب ، ووثب بسيدنا كأنما دفعه دافع ؛ فاذا هو قائم على دكته قد أعجل حتى عن أن يقوم كما تعوّد أن يفعل فى مهل وأناة ، وقد رد التحيةعلى صاحبها فى شئ من وجل ، ثم دعاه إلى أن يتفضل بالجلوس ، وتنحى له عن موضعه فى صدر المكان . وشكر الزائر لهذا الشيخ احتفاءه به ودعاءه له إلى الجلوس ، ولكنه أبى أن يدخل ، وأبى أن يجلس ، وقال فى صوته ذاك المهيب المخيف : « إنى حديثعهد بهذه المدينة ، لم أصل إليها إلا منذ يومين . وقد عرفت أن كتابك هو خير ما فيها من الكتاتيب ، فأحببت أن أقود إليه ابنىَّ هذين ، وأنأ كل إليك تعليمهما . فاما أحدهما وهو هذا — وقدم الصبى ، الذى كان قدأعطاه يده اليمنى — فقد فقد بصره إلا قليلا ،فهبه كل عنايتك وأحفظه القرآن ، فانى قد وهبته للأزهر . وأما ثانيهما فعفريت ما أراه يصلح إلا للمدرسة ، فأمسكه فى الكتّاب حتى لا ينسى من الكتابة والقراءة ما تعلم، وأحفظه شيئاً من القرآن ، وخذه بالشدة إن أبى إلا أن يكون عفريتاً فى الكتاب كما هو عفريت فى البيت . » ثم دفع من فمه ضحكا عريضاً ، ما أظن إلاّ أنه روّع بعض القلوب فى صدور أولئك الصبية الصغار . ثم تقدم خطوة وأخذ بيد سيدنا فوضعها على كتف أحد الصبيين وقال : «هذا هو الأزهرى . » ثم رفع يد سيدنا عن كتف هذا الصبى ووضعها على كتف الصبى الآخر وهو يقول متضاحكا : «وهذا هو العفريت» . ثم قال لسيدنا : « فأما الأزهرى فاسمه عثمان وأما العفريت فاسمه محمود . أتريد أن أتركهما لك منذ الآن ؟ أم ترى أن أعود بهما اليوم على أن يستأنفا سعيهما إلى الكتّاب إذا كان الغد ؟ » وهم سيدنا أن يجيب، ولكن الرجل لم يمهله، و إنما قال : «سأستصحبهما اليوم وسيسعيان إلى الكتاب منذ غد . ولا تطلقهما للغداء فسيحمل إليهما غداؤهما كل يوم ، ولا تطلقهما إذا صليت العصر حتى يأتى من يصحبهما إلى الدار ، فانهما غريبان لايعرفان طرق المدينة بعد ، وليست الدار قريبة من الكتاب. » ثم ألقى تحيته بصوته ذاك المروع المخيف ، وأدار ظهره منصرفاً لم ينتظر أن تردّ عليه تحيته . وما أحسب إلا أنه قد سمع هذا الضحك الذى اندفع الكتّاب كله فيه ، والذى لم يستطع سيدنا ولا العريف أن يكفا عنه التلاميذ إلا حين أذنا لهم بالانطلاق ليصيبوا غداءهم ، على أن يذكروا أن من تأخر منهم عن موعده فلن تعفى رجلاه من هذا النصيب المعلوم من العذاب الذى لم يكن يقل عن خمسة سياط وربما بلغ عشرين سوطاً .

وقد رضى سيدنا ورضى معه العريف عن يومهما ، وعما ساق الله إليهما من الخير فيه ؛ فقد كان هذا الرجل موظفاً كبيراً طرأ على المدينة منذ أيام ، ولم يكن شك فى أنه ضابط تركى قديم من ضباط الجيش ، يظهر ذلك فى حديثه ، وفى عربيته التى تبرأ من الرطانة والتكسر ، ولكنها لا تمضى مستقيمة إلى غايتها ، وإنما يثقل بها لسانه ، ويتعثر بها منطقه . بل زعم العريف أن زوجه تركية خالصة لا تتكلم العربية إلا فى مشقة شاقة وجهد شديد . وهى إذا أتيح لها أن تتكلم العربية التوى لسانها بها التواءً شديداً . وهى تؤنث المذكر ، وتذكر المؤنث ، وتفعل ببعض الحروف العربية الأفاعيل ، وزعم العريف أن لهذين الصبيين أختين قد بلغتا طور الشباب ، وظفرتا بحظ من جمال لا يتاح إلا للترك أو من يشبههم أو يقاربهم من الأوربيين . وقد سمع سيدنا لكل هذا الكلام غير حافل به ولا آبه له . وآية ذلك أنه لم يرد على العريف إلا بقوله : « ما أظنه يدفع أقل من عشرين قرشاً فى الشهر أجراً لتعليم ابنيه . »

وكان فى الكتّاب صبى لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه ؛ لأنه كان من الذين يحمل إليهم الغداء فى الكتاب ، وقد سمع حديث الأب إلى سيدنا وسمع حديث سيدنا والعريف عن الأب وابنيه وعن الأسرة كلها ، فوعى هذا كله فى صدره وحفظه فى نفسه ، ولم يكد يبلغ داره بعد أن صلّيت العصر حتى أعاد إلى أمه ما سمع من حديث ، وسألها عن هذه الأسرة ، فقالت باسمة : «إنها أسرة المأمور الجديد ، وستزورنا السيدة وابنتاها بعد حين ، فاحذر أن تقع عين إحداهن عليك . »

٢

ولم يرتفع الضحى من الغد ، حتى كان الصبى قد تعرف إلى زميليه فى الكتّاب عرّفه إليهما سيدنا ، لأنه كان يحب أن يؤلف بين أبناء الأسر التى تستمتع بحظ من امتياز ، ولأن هذا الصبى كان حافظاً للقرآن مجوداً له . فلم يتردد سيدنا فى أن يكلفه إقراء الصبى الأزهرى . وقال له وقد أخذ بيده الصغيرة فوضعها على لحيته الغزيرة : «لقد وكلت إليك ذقنى ، فأحفظ هذا الصبى ما حفظت وأجد إحفاظه ، ولا تفضحنى عند أبيه الموظف الجديد الكبير . وقدّر أنى وكلت إليك عملا كنت خليقاً أن أنهض به أنا ، أو أن أكله إلى العريف . » وقد وجد الصبى فى نفسه

شيئاً من الكبرياء ؛ فقد أصبح معلماً بعد أن كان متعلماً ، وأصبح مقرئاً بعد أن كان قارئا ، ووجد فى نفسه شيئاً من الفرح والابتهاج لاتصال الأسباب بينه وبين هذين الزميلين المترفين اللذين يلبسان اللباس الأوربى ويضعان على رأسيهما الطربوش ، ولا يلبسان هذه الثياب الفضفاضة القذرة التى كان يلبسها التلاميذ من أهل المدينة ، واللذين ينتميان إلى أسرة تزكية.ولا يتحدران من هذه الأسر التى تأتلف من التجار والفلاحين . وقد أقبل الصبى على عمله ، فطلب إلى تلميذه أن يتلو عليه ما حفظ من القرآن فى القاهرة ، ثم اتخذ هذا نفسه سبباً للسؤال عن كتاتيب القاهرة كيف تكون ، وعن سادة هذه الكتاتيب كيف يسيرون مع التلاميذ ، وعن مذاهب هؤلاء السادة فى تأديب تلاميذهم ووسائلهم إلى هذا التأديب ، والأدوات التى يصطنعونها فيه . وكان الصبى يسمع أحاديث تلميذه كلفاً بها متهالكا عليها ، يكاد ينسى فى سبيلها ما وكل إليه من إقراء هذا التلميذ لولا أنه كان يذكر من حين إلى حين يده الصغيرة فى اللحية الغزيرة ، وصوت سيدنا الغليظ وقد تكلف الرقة والرفق ، وهو يلفته إلى أنه يكلفه عملا خطيراً كان خليقاً أن ينهض به هو ، أو أن يكله إلى العريف . فكان ذلك يردّه إلى القصد ويحمله على أداء الواجب . وكان النهار يمضى ساعة للقراءة ، وساعة للحديث ، ثم ازدادت الأسباب بين الصبى وزميليه متانة واتصالا ، فكان الثلاثة يخرجون من الكتاب إذا صليت العصر ، فيذهبون معاً إلى بيت الصبى قليلا وإلى بيت الزميلين غالباً . وكان هذا البيت أنيقاً مترفاً فى نفس الصبى يملأ قلبه حين يدخله روعة وكبراً . كان قائماً على القناة ليس بينه وبين الماء إلا هذه الطريق الضيقة التى يسعى فيها الناس ودوابهم بين المدينة والقرية ، وقد انبسطت من وراء سوره المرتفع الذى تكسوه الأغصان الخضر والزهر النضر حديقة عميقة مترامية الأطراف ، عن يمين وشمال ، تقوم الدار من ورائها مطمئنة لا ترتفع فى السماء إلا قليلا ، ولكنها تمتد فى الفضاء وتكثر فيها الحجرات. وكان الذى يفجأ الصبى من أمر هذه الدار ويملأ قلبه رضا وإعجاباً أنه كان إذا عبر إليها الحديقة العميقة ودخل الدهليز الذى ينبسط بين الحجرات ، لم يمش على أرض من تراب ، وإنما مشى على أرض قد بسط فيها البلاط . وكثيراً ما راعه أنه كان يرى الخادم تغسل هذه الأرض غسلا وتنقيها تنقية ، ولا ترش عليها الماء رشاً ليستقر ترابها فلا يثور . وكان مما يملأ قلب الصبى رضا وإعجاباً

أنه كان لا يكاد يدخل الدار مع زميليه حتى ينعطفوا إلى يمين ، ويأووا إلى حجرة خاصة لايسكنها أحد من أهل الدار ، ولا يطرقها أحد غير هذين الصبيين ، قد خصصت لها يلعبان فيها ، وجمعت لها فيها أدوات كثيرة مختلفة غريبة للعب ، وأسندت إلى جدرانها كراسى ومجالس يستريح عليها الصبيان ومن يلاعبهما من الرفاق . فهما لم يكونا يجلسان على الأرض ولا يلعبان فى الفضاء المنبسط أمام الدار ، ولا يتعرض لعبهما لضحك الكبار منه أو مشاركة الواغلين من الأطفال فيه . كان لعباً مترفاً فى حجرة مترفة ، ليس للصبى بمثله عهد . وكان ثلاثتهم إذا وصلوا إلى الدار لا يكادون يستقرون فى حجرتهم تلك حتى تلم بهم ربة الدار وآنسة من الآنستين ، فيكون الحديث الرفيق والحنان الرقيق والدعابة العذبة . ثم يخلو الصبية بعدذلك إلى لعبهم ، فينفقون فيه ما شاء الله من وقت يقصر أو يطول .

وكانت ربة الدار سيدة كريمة ، قد تقدمت بها السن شيئاً ، ولكنها كانت حلوة الشمائل ، عذبة الحديث ، فى لهجة عربية ضعيفة أشد الضعف ، ملتوية أعظم الالتواء . وكان حديثها ذاك الملتوى المتعثر البطئ يسحر نفس الصبى و يملأ قلبه فتوناً . فأما الآنستان فقد كانت كبراهما (تفيدة) رائقة الحديث ، شائقة الدعابة ، متكسرة اللفظ ، تتكلم فيخيل إلى السامع أن عهدها بالنوم غير بعيد ، وكانت على ذلك ماكرة حديدة اللسان ، لاذعة النكتة ، بطيئة الحركة ، قليلة النشاط . وكانت أختها الصغرى (إقبال) جذوة من نشاط لاتنقطع لها حركة ولا يستقر لسانها فى فمها ، وهى على ذلك حلوة المحضر ، مشغوفة باللعب ، لو أطلقت لها حريتها لما فارقت الصبية ولا زهدت فى لعبهم . ولكن الدار كانت منظمة أدق النظام وأشقه ، فلم يكن يتاح لهاتين الآنستين إلا قليل من فراغ بين حين وحين . وقد نعم الصبى بهذه الحياة وقتاً لا يذكر أطال أو قصر . ولكنه يرى ذات يوم فى الدار حركة غير مألوفة ، و يخيل إليه أن فى الجو شيئاً لا يلبث أن يعرف ما هو ؛ فقد خطبت تفيدة ، وما هى إلا أسابيع حتى يقبل قوم من القاهرة ، وحتى تقام فى الدار أعياد ، ثم يعود الزائرون من حيث أتوا ، وقد استصحبوا تفيده ، ففقدت الدار من جمالها و بهجتها شيئاً غير قليل .

والحياة مع ذلك ماضية فى طريقها فى هدوئها المتصل واطرادها الممل ، والصبى ناهض بواجبه ، يحفظ زميله القرآن ، ويشاركه فى اللعب و يخوض

معه فى فنون الحديث ، ولكن محمودا يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدنية ، فيفقد الكتّاب بانصراف العفريت عنه من بهجته شيئاً غير قليل . ويخلو الصبى إلى زميله وتلميذه عثمان يعلمه ويلاعبه . ولكن السأم يسعى بينهما ، وإذا الصبى ينصرف عنه قليلا قليلا ، ويشغل شيئاً فشيئاً برفاق آخرين من أهل المدينة ، يعرضون عليه فنوناً جديدة من اللعب ، ويلقون إليه ألواناً طريفة من الحديث، ويقرءون معه كتباً لا عهد لأبناء الكتاب بها ، ولا إرب لهم فى قراءتها . والصبى مع ذلك يلقى رفيقيه المترفين فى داره حيناً وفى دارهما حيناً آخر . ثم يسمع ذات ليلة أبويه يتحدثان فى شى من الحزن وفى شئ من السخرية أيضاً بأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش قد سافر إلى القاهرة ، فأقام فيها أياماً ، ثم عاد ومعه سيدة تركية لم تبلغ الثلاثين بعد ، لها حسن رائع وجمال بارع ، وفتنة فاتنة ، وتسلُّطٌ على الضابط الشيخ عظيم ، وأن تلك الدار المترفة الأنيقة التى كانت جنة من جنات النعيم ، قد أصبحت مستقرا للحزن والبؤس والشقاء ، قد أصبحت جحيما تصلَى فيه أم البنين نار الحزن ولوعة الغيرة ، ويشقى فيها هؤلاء الثلاثة بما يرون من حزن أمهم وبؤسها وبكائها المتصل واعتكافها فى حجرة لا تبرحها إلا أن تكره على ذلك إكراهاً ، كما يشقون بهذا النعيم العظيم يستمتع به الضابط الشيخ وزوجه الشابة فى طرف من أطراف الدار . كانا يستخفيان بسعادتهما أول الأمر ، فينعمان من وراء الأبواب المغلقة والأستار المسدلة . ولكن السعادة جمحت بهما حتى تجاوزا القصد . وأكبر الظن أن شقاء الأشقياء ، هو الذى أذكى سعادة السعداء . وكأن الزوجين السعيدين قد رأيا فى اعتكاف تلك المعتكفة وبكائها المتصل ، وفى هذه الوجوه العابسة الكئيبة من حولها ، وفى خفوت تلك الأصوات التى كانت تملأ الدار فرحاً ومرحاً ، وفى سكون تلك الحركات التى كانت تملأ الدار بهجة وسروراً ، كأنهما رأيا فى هذا كله احتجاجاً على ما أتيح لها من سعادة ، وإنكاراً لما سيق إليهما من نعيم ؛ فقبلا التحدى ، وأظهرا ما كانا يضمران ، وأعلنا ما كان يسران ، وظهرت سعادتهما وقحة ، مسرفة فى القحة لا تتحفظ ولا تحتشم ولا ترجو لشئ وقاراً . فالقُبَل تختلس فى هذه الزاوية أو تلك فى غير احتياط أول الأمر ، ثم هى لا تختلس ولا يستخفى بها ، وإنما يتهاداها الزوجان أمام هذه الكاعب البائسة ، وبمنظر من هذين الغلامين الشقيين ، وغير بعيد من هذه الأم التعسة

المحزونة . ثم تتجاوز القحة حدودها ، ويتعمد الزوجان المفتونان إيذاء هذه المرأة الكئيب، فينتهزان الفرص ليظهرا لها سعادتهما بشعة ليس لها حظ من تحفظ أو استحياء . ويتحدث الناس ذات يوم بأن هذه الأم البائسة عليلة لا تخرج من حجرتها ولا تترك فراشها . ثم يأتى النبأ ذات صباح بأنها قد فارقت الحياة ، فأراحت واستراحت وتركت فى قلب أبنائها سعيراً أى سعير . وقد استقرت هذه الأم البائسة فى قبرها المتواضع من وراء النهر . وجلس صاحب الدار للمعزين يستقبلهم كما تعوّد الناس أن يفعلوا . وقد مرت الليلة الأولى كما تعودت ليالى العزاء أن تمر . أقبل المعزون فسلموا وجلسوا وسمعوا القرآن، وانصرف فوج منهم ليخلفه فوج آخر، ثم ختمت القراءة حين أوشك الليل أن ينتصف . ثم أقبل اليوم الثانى وأقبل معه القراء يتلون القرآن ، وأقبل الناس يعزون ويستمعون ويخوضون فى مختلف الأحاديث . وإنهم لفى ذلك بعد أن صليت العصر ، وإذا امرأة شابة تخرج من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة رزينة الخطو سافرة لم تلق على وجهها نقاباً، وقد اتخذت فى إحدى يديها حقيبة صغيرة . فلما توسطت الجمع وجم الناس ، وهمّ صاحب الدار أن ينهض ولكن الوجوم أخذه هو أيضاً فأثبته فى مكانه ، وارتفع صوت تفيدة هادئاً رزيناً فقطع المقرئ قراءته واستمع لها الجمع كأن على رءوسهم الطير ، وإذا هى تقول : «من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره ، فليس هذا حفل عزاء وإنما هو حفل فرح وابتهاج . إن هذا الرجل الذى تعزونه قد قتل امرأته ، وابتهج بموتها ، لم يرع حرمتها ولم يرع حياء ابنته الكاعب ، ولم يرع صبا غلاميه الصغيرين ، وإنما ازدرى هذا كله فى سبيل سعادته بزوجه الجديدة ؛ فكان يداعبها ويلاعبها ، وينال من مداعبتها وملاعبتها فى الجهر مالا ينـاله الرجل الكريم ذو المروءة إلا سرًّا . وكنت فى القـاهرة لا أعلم من ذلك شيئاً ، فلما أقبلت لدفن أمى سمعت، فأنكرت أذناى ولم يصدّق قلبى ، ولكنى أشهد وأشهدكم أنى رأيت ورأى إخوتى، وفيهم كاعب وصبيان، هذا الرجل يداعب امرأته الشابة ويلاعبها راضياً مغتبطاً مسروراً ولم يمض على دفن أمنا إلا يوم وبعض يوم . فان رأيتم بعد ذلك أن هذا الرجل محتاج إلى تعزيتكم فأقيموا وإلا فانصرفوا راشدين . »

ثم تحوّلت عن الجمع فلم تدخل الدار ، وإنما أخذت طريقها إلى المحطة لتركب القطار الذى يحملها إلى القاهرة . ولست أدرى ماذا كان من أمر الجمع

المحتشدين بعد هذه الفضيحة ! ولكنى أعلم أن استقبال المعزين لم يبلغ أيامه الثلاثة ، وأن هذا الضابط التركى القديم من ضباط الجيش لم يستطع أن يقيم فى المدينة إلا ريثما يدبر أمر سفره ، وأنه ارتحل ذات يوم بما كان يحيط به من نعيم وجحيم ، فانقطعت بينه وبين المدينة الصلات والأسباب ، لم يسمع أهل المدينة عنه شيئاً ولم يسمع هو عنهم شيئاً .

٣

ومضت الحياة فى طريقها هادئة مطمئنة ، تعبث بالناس ويعبث الناس بها ، ويعفى مايقبل من أحداثها على آثار ما أدبر من الخطوب . وقد هاجرت أسرة الصبى من المدينة إلى أعلى الأرض ، وهاجرت أسر أخرى إلى أدنى الأرض ، وشغلت كل أسرة بنفسها عن غيرها . وشغل كل واحد من أبناء الأسرة الواحدة بشأنه الخاص عن شؤون أهله وذويه . ومضت أعوام تبعتها أعوام ، وبلغ الصبى طور الشباب بعد أن خاض إليه غمرات الخطوب ، ولكنه يحس ذات مساء بين درسين من دروس الجامعة القديمة يداً تمس كتفه وصوتاً يمس أذنه ، وتقع فى نفسه هذه الجملة : «ألاتذكرنى ! لقد كنت معك فى الكتّاب أنسيت العفريت ؟ »

بلى ! لم أنس العفريت وهيهات أن أنساه . وقد استأثر من قلبى ذاك الناشئ بمكان ممتاز لم يبلغه أحد من إخوته كما لم يبلغه أحد من رفاق الصبى أولئك الذين عرفتهم فى الكتّاب ، أو عرفتهم خارج الكتّاب أولئك الذين اتصلت بينهم وبينى أسباب المودة أيام الصبا ، فكانت عشرتى لهم طويلة أو قصيرة ، بلى ! لم أنس العفريت . ولقد حدثت نفسى غير مرة حين هبطت إلى القاهرة ، لأطلب العلم فى الأزهر الشريف بأن من الممكن أن ألقاه أو ألقى أخاه فأجدد من أسباب المودة ما رثّ ، وأصل منها ماانقطع ، وأنقل من صباى فى المدينة إلى القاهرة طرفاً أستبقيه وأنميه ، وأجد فى استبقائه وتنميته رضا القلب ومتعة النفس وسعادة الضمير . ولكنى اختلفت إلى الأزهر أعواماً وأعواماً ، وعرفت فيه كثيراً من الصبية والشباب والشيوخ دون أن ألقى العفريت أو أخاه أو أسمع عنهما قليلا أو كثيراً . ولم أبح لنفسى أن أسأل عنهما أحدهما أو كليهما . ولو قد سألت

لكان من الممكن أن أصل إلى هذا الأزهرى الذى كنت أحفظه القرآن أيام الصبا ، وأن أصل من طريقه إلى أخيه العفريت . لم أبح لنفسى أن أسأل . وما أقل ما كنت أبيح لنفسى السؤال ! وما أكثر ماصرفنى الحياء عن السؤال والاستقصاء !

ثم أنفقت فى الجامعة عاماً وعاماً وعاماً ثالثاً ، ولقيت من الطلاب من درس فى الأزهر ومن تعلم فى المدارس المدنية على اختلافها ، وخطر لى غير مرة أن أسأل عن العفريت ماخطبه وأين يكون ؟ ولكنى لم أبح لنفسى السؤال فحفظت فى قلبى من ذكر العفريت ما كنت أردده على نفسى حيناً بعد حين ، أختصها به ولا أُظهر عليه أحداً من الناس ، حتى أقبل علىّ العفريت ذات مساء فمست يده كتفى ومس صوته أذنى ، ومست نفسه نفسى ، واستأنفنا فى الشباب حياتنا كما ألفناها فى الصبا . كان حديث عهد بالجامعة يدخلها فى أول العام الذى كنت أريد أنا أن أتركها فى آخره ، فكنا نجتمع وجه النهار لا فى داره تلك ، وأين كنا من داره تلك ! ولكن فى تلك الحجرة المتواضعة التى كنت آوى إليها أثناء الطلب . ولم يخطر له قط أن يدعونى إلى داره ولم يخطر لى قط أن أسأله عن هذه الدار . ولقد هممت أن أسأله عن إخوته فأجابنى من طرف اللسان ، فلما استزدته راغ عنى بالجواب وانتقل إلى حديث آخر . فأحسست أنه يستحيى من أسرته فلم أسأله عنها بعد ذلك . كان قد تخرج فى إحدى المدارس الفرنسية ، وظفر بشهادته الثانوية والتحق بالجامعة . وكنت أنا أحاول أن أتعلم هذه اللغة الأجنبية وأبذل فى ذلك جهوداً مختلطة أشد الاختلاط ، منها الموفق ومنها غير الموفق ، وكان هو مشغوفاً بالترجمة من هذه اللغة إلى اللغة العربية ، فكان يقرأ علىّ بعض ما كان يترجم ، وكان يقرأ لى بعض ما كنت أريد أن أعرف من الأدب الفرنسى . وقد أنسى أشياء كثيرة ، ولكنى لن أنسى أنه قرأ لى أساطير لافونتين وقصة «كانديد» . وأحاول أن أذكر كيف قضينا أول الليل بعد خروجنا من الجامعة ذات يوم وأين قضيناه ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وإنما أذكر أنى صرفت خادمى وبقيت معه على أن يردنى إلى دارى بعد أن نفرغ مما أردنا إليه . ولست أعرف ماهذا الذى أردنا إليه . ولكنى أعرف أن الليل بلغ نصفه وأنا كنا بعيدين عن دارى قريبين من داره فى حى من الأحياء الوطنية المتواضعة ، فقال لى فى صوت متكسر : « لننفق سائر الليل معاً فنقرأ ما أطقنا السهر ، ثم تعود

إلى دارك فى ضحى الغد.» وقد أجبته إلى ما أراد، فدونا فى حارات ملتوية وانتهينا إلى دار متواضعة حقيرة ، وأوينا من هذه الدار إلى حجرة بائسة قد ألقى عليها حصير بال ، وألقى على الحصير وسادة ولحاف ، فى هذه الحجرة قرأ لى جزءاً عظيما من «كانديد» ولم ننم إلا بعد أن جاوز الليل ثلثيه . فلما كان ضحى الغد عدت إلى دارى واستبقيته معى إلى آخر النهار . وفى تلك الليلة فهمت مصدر هذا الحياء الذى منعه أن يتحدث إلى من أمر أسرته بشئ .

ومضت أشهر الصيف التى يفترق فيها الطلاب ، وأقبلت أشهر الخريف التى يلتقى فيها الطلاب ، ولقيت صاحبى فيمن لقيت ، ولكنه كان لقاء قصيراً . فقد سافرت إلى فرنسا فى خريف ذلك العام ، وودعت صاحبى فى القطار. وأشهد ما نسيته أثناء ذلك العام الذى قضيته فى فرنسا . وأشهد لقد عدت إلى مصر حين دعتنا الجامعة إلى أن نعود قبل أن نتم الدرس وفى نفسى أنى سأجد عند صاحبى هذا عزاء عن هذا الدرس المقطوع . ولكنى أصل إلى القاهرة ، وأسأل عن صاحبى ، فأعلم أن حمى التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف .

وما أريد أن أصور للقارئ ماوقع فى نفسى من حزن ولوعة ؛ فانى لم أكتب هذا الحديث لشئ من هذا ، وإنما أذكر أنى سعيت مع رفيقين لى ذات يوم بعد أن صليت العصر إلى قرافة المجاورين حيث قيل لى إنه قد دفن ، وأنى أنفقت مع رفيقى وقتاً طويلا وجهداً ثقيلا نلتمس قبره لنهدى إليه التحية ولنضع عليه شيئاً من زهر ، فلم نهتد إلى هذا القبر . فعدنا يائسين وقد ألقينا التحية إلى قبور القرافة كلها ، وألقينا الزهر على قبر ما فى قرافة المجاورين . وكنت كئيباً كاسف البال مظلم النفس معقود اللسان ، وكان أحد رفيقىّ يهون علىّ وينشدنى قول الشاعر العربى القديم :

لقد لامنى عند القبور على البُكا ... رفيقى لتَذراف الدموع السوافكِ
فقالَ أتَبْكى كلّ قبرٍ رَأيتَهُ ... لقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادكِ
فقلت له إن الشجى يبعث الشجى ... فدعنى فهذا كله قبرُ مالك

طه حسين